

الحياة شيء مظلم  
ومفزع (١) ، إنها  
تدفع بالقلب الى  
الانقباض والتقلص ،  
وتحيل الانسان إلى

## المدنية القرية

قصة بقلم ايليا اهرنبرج  
نقلها الى العربية جابر النفاشي

يكن يترك الكبير  
أو الصغير ، وكانت  
تسليته المحبوبة هي  
اصطياد الحمام برصاص  
البنادق الالمانية .

كان يقول « انهم لا يتركون لي لحظة سلام واحدة ، ولو  
استطيع لأجلبتهم جميعاً ... » كانت الحياة تأكل قلبه ، ولقد  
حاول ان يشغل ذهنه بأشياء اخرى ، ولكن دون فائدة .

حين تقهر الالمان كان هناك رجل ذو عيون ، زجاجية ،  
حمراء ، يجري وراء آخر عربة نقل في طريقها الى الرحيل ..  
كان هذا الرجل هو شيخ القرية سابقاً .

ذات مرة كنت جالساً في حجرة بأحد البيوت ، وكان  
هناك شيء حيرني يلوح في عيني سيدة المنزل ، كان يبدو ان  
عليها غشاوة .. وكانت أيضاً خاليتين من الحياة ، وكانت  
السيدة تبدي كثيراً من الاحجام والكراهية اثناء إجابتها عن  
الاسئلة التي كنت اوجهها لتلطيف جو الحجرة الذي كان يمتلئاً  
اكثر من اللازم بصمت لا يجتمل ، وكان هناك طفل يلعب في  
ركن من الاركان .

سألته « هل كان الالمان يزورونك ؟ » - فأجبت بالنفي ،  
فقلت « لقد كنت محظوظة » .

ولكن الطفل اندفع يقول « لقد كان أوتو يجيء » ، وأخذ  
الطفل يطبل على الكرسي بيديه وهو يكرر في عناد « لقد تعود  
أوتو ان يجيء » ، لقد تعود أوتو ان يجيء » .

على اثر هذا تركت السيدة الحجرة ، دون ان تتفوه بكلمة ،  
ولم استطع ان ابقى اكثر من ذلك ، فقد بدت لي الحجرة  
وكانت خلت من الهواء . واسرعت بالنزول الى الشارع ،  
وكان يوماً مضيئاً ، مليئاً بالجليد ... كانت مئات النساء  
- وعيونهن ترمش في اشعة الشمس الساطعة - يتسمن للراية  
الحمراء الاولى التي كانت ترف آنذاك فوق سارية بيت بدت عليه  
آثار القنابل ، وكان الكون يشع بالحياة والفرح - كان هناك  
امرأة واحدة - ذات شعر اشقر ، وعيون زجاجية ، لا تجد  
لنفسها مكاناً في هذا الكون .

ان الاخلاص لا يقوي الانسان فقط ، انه يدفي قلبه  
كذلك .. في قرية بديونوفكا ، كان فردريك ريتش ، يتلذذ في  
سادية بتعذيب الصغار من الصبيان والفتيات .

جنة حية قبل موته الحقيقي بكثير ، وما اكثر ما يتكلم الخائن :  
إنه يحاول أن يفرق الفزع الذي يسك بروحه ، في ضجة كلامه .  
ولكنه سيتلعثم فجأة ، وينتهي إلى الصمت ... الصمت الجامد  
كالقبر ، وعيون الخائن ذات حيلة ومكر ، لها نظرة سريعة  
ماكرة ، كأنها نظرة حيوان سجين ، وليس من السهل أن  
تدقق النظر في عين خائن ، ولكن إذا أتيت لك اخيراً هذا ،  
فسترى انها فارغة جوفاء .. ان للخيانة رائحتها الخاصة ، ولها  
كذلك بعد ارتكابها طعم خاص ، هو الطعم العنيف المر للباس .  
جاء وقت كان فيه ألكسي كيبوف ، نائب الحاكم في  
مدينة « كيرسك » ، حرّاً ، وسعيداً . وفي تلك الأيام افشى  
اسرار وطنه فكافأه الالمان واغدقوا عليه من نعمهم ، وأعطوه  
كهديّة ، منزلاً كان ملكاً لانسان آخر . وكان الضابط الالمانى  
يحببه ويشد على يديه في حرارة ، ولكن كيبوف لم يكن  
مطلقاً يشعر بالسعادة ، ومع كل يوم جديد ، تزداد نفسه كآبة  
عما كانت عليه من قبل . كان يجلس في مكتبه ، وبيد ثابتة ،  
بعد قوائم باسماء الاشخاص « غير الموثوق بهم » : لقد كان يفشي  
أسرار زملائه الروس إلى الالمان ، وأنداك كان ينظر في دهشة  
الى يده - وبدأ يتجنب رؤية وجهه في المرآة ، وحتى العسل  
الذي كان الفاتحون يتقاضونه من الفلاحين . . . حتى هذا كان  
مرآ في فمه .

حلقت طائرة سوفيتية على « كيرسك » ، وسأل الضابط  
الالمانى كيبوف « أي طائرة هذه ؟ » فأجاب « إنها طائرة روسية » .  
وبعد قليل ظهرت طائرة المانية ٢ ، فأضاف كيبوف « وهذه  
اخرى لنا » ، وحقه الالمانى على اثر ذلك وقال « انك تخدع  
نفسك ، فلا هذه ولا تلك من طائراتكم » ، فتخادل كيبوف :  
لقد دفع من جديد الى الشعور بشمن خيانتة .

اشتهر شيخ إحدى القرى في مقاطعة كيرسك ، بوحشيته  
الصریحة ، فقد كانت النساء تجلد علانية بأوامر تصدر منه ، ولم

(١) من مجموعة قصص روسية قصيرة ، لبعض الكتاب الروسين المعاصرين  
صدرت طبعها الانجليزية بروسكو ١٩٤٤ تحت عنوان « فجر الكراهية » .  
(٢) نوع من الطائرات الالمانية المقاتلة المسماة باسم مخترعها « مزرشيت » .

استطاعوا ان يحتفظوا ايضاً بخفة ارواحهم ... هذه الصفة التي كانت تسمى من قبل بالمرح .

كل واحد يعرف الآن علام يدل « العمل في المانيا » - لقد نفى الألمان بالقوة والعنف ، الفتيات والصبيان حيث يباعون بألمانيا في سوق علنية . فبعضهم يشتريه اصحاب المصانع والبعض الآخر يشتريه الفلاحون ، اما الرجال والنساء ، فيباعون كرقيق ، ويرغمون على ان يطيعوا اوامر الالمان القساة الجشعين .. ألا ما أقسى الحياة في قيد ، ولكن ... حتى هناك ، حيث مئات من الأميال تفصلهم عن اوطانهم ، وحيث هم تحت الرعاية « الحنون » لأصحاب العمل ، فإن الروس لم يتغير ابدأ بإيمانهم بالوطن ، وأمامي خطابان كتبتها بنتان من « كيرسك » .. دون حذر او احتياط ، كتبتنا من المانيا ..

١٥ يناير ، ١٩٤٣

« أمي العزيزة ، نينوشكا ، ميشا ، جالوشكا ، ناديا :  
اليوم هو اليوم الذي تسلمنا فيه الخطاب الأحمر ، أنا و « تانيا » ... لقد وصلتنا رسالتكم ، وقد كنت اغسل الملابس طيلة الصباح ، وكنت أشعر بتعب . لقد كان امامي كمية هائلة وكان عليّ ان اقوم بنفسها ، وفجأة جاءتني « تانيا » تجري وفي يدها خطاب لي ، فهزولت اليها مسرعة .

« عزيزاتي ، متى ينتهي هذا كله ؟ إنه مؤلم وشاق أن نتحمل هذا العذاب المفروض علينا ان نقاسيه - أمي العزيزة ، آه لو تعلمين كم هو قاس ! ولكني انا وتانيا ، نتحمل في صبر ، فاذا استطعنا ان نتبنت ونقاوم فيسكون هذا من حظنا .

« إن الشتاء هنا قارس ؟ ولكن ما من أحد يعيرنا أقل التفات ، وماذا يهمهم لو خرجنا عرايا تماماً ، إنهم ليسوا إلا مجموعة أوغاد ، ما عليهم إلا ان يجلسوا في بيوتهم المريحة ، كل مهمتهم ان يصدروا البناء الاوامر : إعملي هذا ... اعملي ذلك . ولا مفر من الطاعة ، ولو كنت في وطني وحاول إنسان ان يأمرني ، إذن لبصقت في وجهه القدر ، أما هنا فعلى الانسان ان يعلق فمه ويعمل ما يؤمر بعمله .

« عزيزتي نينوشكا ، لقد سألتني عن رؤسائي اي نوع من الناس هم ، ... آه : لو كانوا فقط « ناساً » ، إنهم ليسوا ابدأ كذلك ، إنهم يجلسون حولنا لابسين « دسطة » من الجوارب الغليظة ، دون ان يفعلوا شيئاً ، وحتى اللحظة التي وصلتني فيها

كتب مرة يقول « انهم شديدا العناد ، الى حد كبير » . كان يضرهم بالسياسات دون رحمة ، ولكنه مع ذلك لم يستطع ان ينتزع كلمة من افواههم . لقد ظن انه سيدلهم ويجعلهم ينحنون في استسلام ، ولكن لم يكن هناك مفر من اعترافه بالهزيمة ، والاخلاص وحده هو الذي ألهم هؤلاء الصغار الشجاعة ، والاخلاص وحده هو الذي كان عزاء ساعتهم الاخيرة .

لم يكن كوليا جوزيانوف يزيد عن الحادية عشرة من عمره حين امره جماعة من الالمان - كانوا اشد سوءاً إذ كانوا في حالة سكر - ان يهتف « عاش هتلر » ، ورفض كوليا ، فقالوا له في صورة الامر « والآن ايها الافعى الصغيرة .. ستفعل ام لا ؟ » ولكن كوليا اجابهم « كلا ، لن افعل ... إنني سوفيتي » وعلى الفور دمروه ، دمروا حياته القصيرة ، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا ان يرغموه على ما يريدون ، وكان الاخلاص هو الذي قواه ، وعضده .

كانت ماريا كراسكوفا العجوز ، من الحريصات على الذهاب الى الكنيسة بانتظام ، وقد طلب الالمان ذات مرة من المجتمعين ، اثناء القداس ، ان يصلوا داعين الله من اجل هتلر ، فصاحت العجوز ماريا : « إننا روس ، سنصلي فقط من اجل انتصار جيشنا » .

وعلانية جلسوا ماريا كراسكوفا ، وبعد ذلك أغلقوا عليها مخزناً قارس البرودة ، ولكنها في شجاعة استمرت تصلي في سجنها من اجل انتصار الجيش الاحمر .

خمسة عشر شهراً تحت نير الالمان لم تستطع ان تكسر إرادة الملايين من مواطنينا : لقد قاسوا فزعاً لا يوصف ... جاعوا واضطهدوا ، وعذب الكثير منهم ، وقتل الكثير ، ولكن قلوبهم الروسية كانت ممتلئة بإيمان عميق لا يهتز : لقد خلقنا لتقاسي في سبيل معتقداتنا ، كانوا يصلون من اجل عودة الجيش الاحمر .. بالطريقة نفسها التي يصلي بها عامل المنجم املاً في نسمة من الهراء النقي وهو يحتنق بالموت في بطنه داخل منجمه المههدد بكارثة .

من كان افراد حرب العصابات ينتظرون المعونة في « كيرسك » ؟ : من النساء ، من المدرسين ، من العمال ، من الفتيات ، من الطلبة ، من الشيوعيين الناشئين ، من بائس الجوارب ، من البنات والصبيان الصغار ، من الأمهات ... في كلمة واحدة من الشعب - إنهم لم يحتفظوا فقط بكبرياتهم بل

جواربي ، وقد بعثت بها إليّ ، كنت اخرج عاربة الاقدام ، وكانوا يرون ذلك ، ثم يضحكون فقط وكأنها نكتة .

« نينوشكا : إنك لا تتخيلين كيف كانت مشاعري حين تسلمت ذلك الطرد من وطني ، لقد ذرفت عينايا الدموع ، ولكنها كانت دموع الفرح .. وجواربي ! لقد احسست حين لبستها انها أشد امتلاء بالدفء من دسنة كاملة من جواربهم ، لأنها جواربي ، .. جواربي الخاصة ، ومن وطني حيث كنت اعيش امرأة حرة ، ربما في مستوى أقل فخامة من رؤسائي ، عليهم اللعنة .. ولكن على أي حال كنت اعيش بالطريقة التي أحب ، ولكن لا تخافي يا اختي العزيزة ، فسنعيد ذكرى كل شيء فعلوه بنا ، حينما يأتي الوقت .

« نينا العزيزة ، إذا لاحت لك فرصة فأرجو ان ترسلي إليّ قميصي الاسود ، قميصي المستدير الذي تعرفينه ، فالثوب الذي ارتديه ، ليس إلا مجموعة من المزق ، وهذا بالطبع لا يلفت اهتمام الوحوش ، هؤلاء الوحوش القساة ، إن عليّ ان أعمل هنا في الفناء منذ الصباح الباكر إلى ساعة متأخرة من الليل ، في تنظيف مراحيضهم او زريبة البقر والحنازير ، وهكذا تتبدد حياتي وتتبعثر ، وكأحس برغبة في تمزيق هؤلاء الوحوش ، من أجل تلك القسوة والضعيفة الصرجهتين ، فهنا بعض الروس الذين يضربون كل يوم تقريباً من رؤسائهم ، وهم يحاولون ان يفعلوا ذلك معنا ، انا وتانيا ، فقد حاولت سيدة تانيا ان تهاجمها اليوم ، ولكن تانيا نظرت اليها في طريقة تؤكد لهذه السيدة انها لا تساوي ذرة من الاهتمام ، صرخت تانيا فيها « هل تجرئين ايتها القرد الأحمق ... ؟ » - ولا استطيع ان احدثك الآن عما سيحدث لتانيا .

« هذا هو نوع الناس الذي يثقلونه ، كل ما يريدونه هو ان نكون عبيداً لهم ، أما خروجنا في مزق بالية رثة ، فهذا شيء لا يعينهم بحال ، إنها لمدة قاسية بالنسبة لنا ، ولكن حتماً سيأتي اليوم الذي لا نقاسي فيه شيئاً ، وسيقاسون هم ... سيقاسون جزاء كل هذا الذي ارتكبوه .

« نينا العزيزة ، إننا ، انا و «تانيا» كثيراً ما نكتب لكم ، ولكنني لا استطيع ان افسر مطلقاً لماذا لا تصلكم رسالتنا ، ولقد سألتني ان أخبركم عن انواع الوجبات التي نحصل عليها ، حسناً ... إننا نملك قريباً مما يمكنه ان يمكسك الروح في الجسد حتى الربيع ، أما بالنسبة لهم فانهم يستمرون في التهام الطعام

حتى يصبحوا على وشك الانفجار .

« العزيزة نينا ... إنك لم تكتبي شيئاً عن انفسكم ، وكما نحن قلقتان نريد ان نعرف كل شيء ، فنحن لا نحصل على أي خبر هنا ... إننا نعمل فقط ، ونريد ان نعلم قبل كل شيء : كيف تسير الأمور في الخطوط الامامية ؟ كيف يجارب رجالنا ؟ إننا جاهلتان تماماً بكل ما يحدث .

« حظ سعيد لكم جميعاً .

« امي العزيزة ، لا تقلقي عليّ ، لقد تعلمت كيف انتصر لنفسي ، وسأعود حتماً إلى وطني .

« حي وقلباتي للجميع .

« كلانا »

٢

« ١٥ يناير ، ١٩٤٣ »

« امي العزيزة ، وخالي شورا :

لن نستطيع ان نتصورا اي سعادة ان أتلقى منكها خطاباً ، فقد كنت اخشى ألا تكونا بعدد على قيد الحياة ، او ان تكونا - كما تمنيت - على الجانب الآخر من الجبهة مع إخوتكم .

« عزيزتي ، ماما ، إننا هنا معزولون عن كل شيء يجري من الأحداث ، وربما أمكنكم ان تكتبوا وتخبرونا على الأقل بما يحدث ، فاننا مشوقون ايضاً إلى ان نعرف متى سنكون احراراً من حياة العبودية هذه التي نحيها .

« ماما العزيزة ، لقد أخبرتني في رسالتك انك بعثت إليّ بطرد صغير ، لكنني لم أتسلم شيئاً .. ماما العزيزة ، لا تبغني إليّ بشيء ، إنني على يقين من انكم لا تملكون فائضاً من الطعام او الملابس حتى تستغنوا عن شيء ، اما بالنسبة لي فأنا لا أعطي ادنى التفتات لمثل هذا الآن ، انني حقيقة لا أملك حذاء ، وتعطي المزق جسدي بصعوبة ، وانا دائماً جائعة ، ولكن هذا كله لا يقلقني قدر ما تقلقني الرغبة في العودة من جديد إلى وطني .

« امي العزيزة وخالي شورا : لن نستطيع ان نتصورا بسهولة اي لون من الحياة نعيشه هنا ، وليكون عندكم فكرة ما يجب اولاً ان تعيشها وتربها بأعينكم ، إن الحياة في قيد ليست فراساً من الزهور ، ومع ذلك فلا تتصورا ولو في لحظة انني تغيرت ، فليست مثلي التي تتغير ، ولست من هذا النوع الذي يدعن لأمثال هؤلاء الحقراء : حين يعصيهم الانسان يستدعون البوليس ، وانا لا استطيع يا ماما ان اكتب كثيراً ،

ولكن حين اعود فسأقص عليك الطرق التي كنا نضحك عليهم بها انا وكلافا ، بالرغم من رجال بوليسهم .  
« ولأستودعكم الله في الحاضر ، وارجو ان تصفي كل شيء لحالي شورا ، وان تتأكدنا من انني سأعود

ابنتك : تانيا »

وقد قرأت هاتين الرسالتين البسيطتين ، وأعدت قراءتهما . عن أي حزم وجرأة تعبران ! . وهؤلاء هم الناس الذين ظن هتلر انه سيستعبدهم : بنتان صغيرتان ، أكبر قليلاً من الاطفال ، تباعان في رق ، وينتهزهما الألمان الأشرار ، ولكن البنيتين تمكنتا من الثبات حتى النهاية . ترى ما الذي أمدهما بهذه القوة ؟ إنه الاخلاص ، ثمينة هذه الدموع التي ذرفتها كلافا امام جواربها القديمة التي جاءتها من وطنها ، من بلدتها كيوسك ، لقد تذكرت ولا شك ، الحواجز الوعرة لـ « تسكار » ، حديقة المدينة التي كانت تضح بالضحك والغناء . وتذكرت وطنها الأصلي : روسيا ، حيث كانت هناك تسأل اختها « كيف يجارب رجالنا ؟ » إنها ليست كالحائن « كيبوف » ، إنها روسية حقيقية ، وإن كانت مستعبدة في المانيا ، وليست انانية كل ما يهملها « انا » حيث تعرف بدقة معنى « نحن » . في ضاحية ريفية بألمانيا اخذت كلافا تفكر في التقدم الكبير للجيش الأحمر وكانت صديقتها « تانيا » هي الاخرى شديدة الاقتناع بان اليوم الذي سيحرر فيه الجيش الأحمر امها وخالها شورا ، ليس بعيداً .

اما اقرباء البنيتين ، فليتنفسوا في حرية . لقد عاشوا ليروا الساعة التي طالما اشتاقوا اليها ، وسيأتي حتماً ذلك اليوم الذي ستعانق فيه البنيتان الروسيتان من قاموا بتحريرهما .

يستطيع الألمان ان يجلدوا الروس ويعذبوهم ويقتلوهم ، ولكنهم لن يستطيعوا ان ينتزعوا من قلوبهم هذه الروح النبيلة التي تنبض فيها روح الاخلاص ، إنها الروح التي يظهر الانسان معها بجبين جريء مرتفع حتى وهو يعاني أقسى لحظات العذاب ، وإن معرفتنا بعدالة قضيتنا ، بكبريائنا القومية إنما يضاف الى مجد مدننا التي هدمها الألمان .

« نحن » تلك هي الكلمة التي كانت إلهاماً لسكان كيوسك مدة خمسة عشر شهراً ، حتى استطاع رجالنا ان يدخلوا ، كالعاصفة ، إلى شوارع « كيوسك » الكثيرة التلال ، ولربشة الرسامين ان تتفاوت في رسم هذا المنظر ، وربما رسمه البعض

أكثر جمالا ، ولكن سيكون حتماً أقل تأثيراً .

اندفع الجائعون ، الذين عذبوا ، الى الشوارع ، ولم تكن معهم اعلام ولا زهور ، كل ما كانوا يملكونه ، دموع افراسهم ، وهذه الكلمة الكبيرة « نحن » ، وكان الجنود اشبه بالموتى بعد هذا المشي الطويل ، والحروب العنيفة ، وكانت احذيتهم وقفازاتهم في حالة تلبد وجود ، ووجوههم ايضاً ، بدت من اثر الثلج وكأنها مقوسة ، لقد اندفعوا خلال الشوارع الكثيرة التلال ليستمعوا إلى صيحة التكريم « جنودنا » ... لم يغنوا او يضحكوا ، فقد كان كل هذا الاجتماع رمزاً لفرح قوي ، لانتصار الحياة لانتصار الحق ، وكان الاخلاص هو الذي مكن « كيوسك » من ان تبقى روسية ، فلم تستطع حفنة المارقين ان تشوه روحها ، وكان الاخلاص هو الذي قاد فرق الجيش الأحمر إلى ابعاد من عربات الفحم المعادية خلال الجليد الكثيف عبر حقول المناجم .

ولا يستطيع الانسان بعد مشاهدة بعث هذه المدينة القديمة إلا ان يمجد من جديد الفضيلة الكبرى لروسيا ، تلك التي تمد جنودنا بالقوة ، ونساءنا بالجمال : الاخلاص .

نقلها الى العربية

رجاء النقاش

القاهرة

## المعهد العالي

بيروت

تعلن إدارة المعهد العالي أنها ستفتتح الفرع الصيفي في مدينة مجمدون ، أشهر مصايف لبنان ، في أوائل شهر تموز كالمعتاد .

داخلي - خارجي

أقسامه : روضة اطفال ، ابتدائي ، ثانوي .  
يستحسن حجز الأماكن للطلبة الداخلين باكراً .  
والبيانات ترسل الى من يطلبها مجاناً .

المخبرة مع الادارة

برج ابي حيدر - قرب المسجد - بيروت - لبنان

ص . ب . ١٠٨٥